الأسس العلمية لبناء الخلق الاجتماعى

للدكتور ابراهيم سلامة

أستاذ التربية بدار العلوم

يتحدث الكثيرون عن الاصلاح الاجتماعى ، ونسمع من الكثيرين عن التضامن الاجتماعى ، والعدالة الاجتماعية ، والتربية الاجتماعية . وليس أدل على عنايتنا بهذه العبارات ومدلولاتها من أن نهضتنا الحديثة تمخضت عن وزارة برمتها تسمى " وزارة الشؤون الاجتماعية " ومع ذلك لم نسمع إلا قليلا عن الخلق الاجتماعى ، وأقل القليل أن نسمع شيئا من الأسس العلمية التى يبنى عليها ذلك الخلق . نريد إذن أن نتحدث عن حقيقة الخلق الاجتماعى . ما هو ؟ وهل هو يتنافى مع الخلق الفردى أو يدخل فيه ؟ ونريد أن نتحدث بصفة خاصة عن المبادئ التى يبنى عليها ذلك الخلق الاجتماعى .

هذه المبادئ العلمية التى يبنى عليها الخلق الاجتماعى لاتخرج عن ثلاثة المبادئ الآتية التى تقررها علماء الاجتماع : المبدأ الأول أن يستشعر الإنسان أنه يعيش فى طائفة من الطوائف وأنه ليس وحيدا فى هذه الحياة ، وليست التربية فى محاولاتها أو علم النفس فى نظرياته يطالب بإظهار مواهب لذاته ، بل ليتفع بهذه المواهب ولتنفع بها الجماعة التى يعيش فيها . والمبدأ الثانى أن يربى الفرد على خلق الحد من مطالبه ورغائبه وأن تشذب تلك الرغائب والشهوات تشذيبا يمنع عنها الشذوذ والخروج وأن يعدل من غرائزه بما يجعلها تتعدى إلى الغير أو تتعدى على الأقل إلى المحيط الذى يعيش فيه : فكل رغبة جامحة ، ونزوة طامعة يحد منها ، يستقط هذا الزائد من حساب الفرد ليضاف الى حساب الجماعة . والمبدأ الثالث هو حرية التفكير ، وحرية النزوع والإرادة . فالعمل الذى يقهر عليه صاحبه لايسمى خلقا ولا ينبغى أن يخط فيه سطر واحد فى باب الأخلاق . تلك هى المبادئ الثلاثة التى أقرها علماء الأخلاق وعلماء الاجتماع معا وسنقتصر فى حديثنا عن المبدأ الأول بما يكشفه ويجليه .

ويقتضينا عرض الموضوع هذا العرض السريع أن نتعرف الجماعة التى نربى من أجلها الخلق . وبعبارة علمية أن نتعرف على الكائن الاجتماعى الذى نطالب به كل كائن فردى بالعمل من أجله ، الكائن الاجتماعى يعيش معنا ونعمل من أجله كما نعمل من أجل أنفسنا ، فالوالد يعمل من أجل ولده ، والولد يعمل متأثرا خطى والده ونصائحه ، ومسترقا من طريق الطبع ميوله وغرائزه . والزوجة تعمل من أجل أولادها ، والمعلم يعمل من أجل تلاميذه وهم يعملون من أجله أو من أجل الوطن ، ويكون الكل مخطئا إن اعتقد أى فرد من أفراده أنه يعيش لنفسه ويعمل لنفسه ، وكما يعيش هذا الكائن معنا يعيش فينا أيضا وهو الذى يدفع العامل إلى العمل من أجل غيره وإلى إتقان هذا العمل ، بل إلى الإخلاص فيه . وهو الذى

يدفع العالم إلى الاختراع ليفيد باختراعه أكبر عدد ممكن من قومه وقبيله أو من الناس عامة وبمقدار الفائدة التي يستفيدها الكائن الاجتماعي يخلد من ذكر الفرد ويبقى على الدهر آثاره.

إذن نحس أثر الكائن الاجتماعي إذا ما اجتمعنا على فكرة من أجل المطالبة بحق سلبا أو مجد سلف ، ونحس أثره في المظاهرات الوطنية التي يقصد بها خدمة رأي من الآراء أو فكرة من الأفكار أو خدمة الكائن الاجتماعي الأكبر الذي هو الوطن ، ونحس أثره في أعيادنا وفي مآتمنا. ونحس أثره في الحجيج يهتف باسم واحد ويرمي إلى فكرة واحدة وإذن فالكائن الاجتماعي يعيش بيننا ويعيش فينا وهو الذي يسيرنا وهو الذي نسير من أجله وهو يد الله التي تعمل مع كل جماعة فتباركها وتزيد في إنتاجها . ولأن "يد الله مع الجماعة" أي روحه ومعونته فلا تحتسب الجماعة بالأفراد، وليست الجماعة فردا متكررا كما يقول بعض الناس، بل الجماعة هي الأفكار والمبادئ التي تعمل باسمها الناس ، وهي الغايات والمثل التي يتطلع إليها الناس، وهي البذل والتضحية التي يستهين بها الناس في سبيل غاياتهم وفي سبيل الوصول اليها ، فرب عديد لا روح فيه لأنه لا مبدأ له . ورب جمع يتسلط عليه فرد ، فيقاد كما تقاد الأنعام . ورب طائفة أو أمة يتزعمها زعيم له غايته وليس له روح أمته فيودي بها جميعا إلى الهاوية فالجماعة الجديدة بهذا الاسم هي التي تتكون من جماعات صغيرة لكل منها مبادئها وأفكارها ، واتجاهها وغايتها ، وفلسفتها ومثلها . تلك الجماعة جديرة بأن يكون الله معها وجديرة بأن تحتفظ بكيانها ، "وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية" .

فالمبدأ الأول الذي ننادي به ليكون أساسا للخلق الاجتماعي هو أن ينضوي الفرد تحت جناح طائفة من الطوائف الاجتماعية وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع بالالتصاق الجماعي .

هذا المبدأ يشمل الأخلاق الأسرية ويشمل الأخلاق المدرسية فالمدرسة جماعة وجماعتها ليست أقل خطرا ولا تأثيرا من الجماعة الأسرية. والإلتحام بالفكرة لا يقل أثرا عن الإلتحام بالدم والنسب والمصاهرة ويشمل هذا المبدأ الأخلاق النقابية على اختلاف أنواعها سواء منها من يشتغل أفرادها بالأعمال اليدوية ومن تكون أداته الفكرة والمنطق والعلاقات المختلفة بينه وبين أبناء مهنته .

وإذا حدثنا علماء الأخلاق بالأخلاق الأسرية وعلاقة الوالد بولده ، والمرأة بزوجها ، والأخ بإخوته ، وحدثونا بمحبة الخير، وضرورة الإيثار ومضار الأثرة . وإذا حدثونا بالحرية والأخاء والمساواة ، وإذا حدثونا بمحبة الوطن والعمل لخير المواطنين فانما يصدرون عن فكرة واحدة ويتناصون من معين واحد هو معين المبدأ الأول وهو ضرورة التصاق الفرد بجماعة من الجماعات . وإذا رجعنا إلى تطور هذا القانون الخلق وجدنا أن الأسرة هي المهد الأول الذي احتضن الأخلاق ووجدنا أن في حرارة الأسرة الدافئة أفرخت الأخلاق كثيرا من المبادئ العالية ، فالأخلاق في الرومان كانت مصونة
برب الأسرة ، والأخلاق في الأمة العربية كانت مصونة في العشيرة وفي القبيلة ، وكانت

الدنية تتركب من فرد واحد فتصيب عارها العشيرة كلها ، والاهانة تلحق أى فرد فكأنما أصابت القبيلة جميعها ، ولكن الفرد فى القبيلة الرومانية وفى القبيلة العربيـة الجاهلية كان مسلوب الإرادة غارقا فى لجة هذه الجماعة الالية التى يحركها زعيمها كما يريد و يقضى التطور ان تتقلص الأسرة الى أب وام وأطفـال وأقارب يقضى التمدين الخلق أن يكون كل واحد من هؤلاء عارفا بما له و بما عليه متقدرا لحقوقه وواجباته وسار مع هذا التطور الدين الاسلامى بجعل للولد فى عنق أبيه حق تربيته ، ومن لا والد له فأمره فى عنق المسلمين جميعا وولية ولى الأمر فى الجماعة التى يعمل فيها ، وقضى ربك ألا تعبدوا أياه و بالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبـة او اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا مترية ، ولكن هذه الأسرة أو هذه الجماعة الأولى التى يتصل بها الطفل أول ما يتصل بالحياة قد أهملت واجبها ، وتفككت رابطتها وتشرد أفرادها تحت تأثير الحيـاة الاقتصادية التى قضت بأن تشتغل المرأة وأن يشتغل الصغار ، أو تحت تأثير التخاذل الاجتماعى الذى سببه الطلاق وتبعه التشرد ، أو سببه تعدد الزوجات وتبعته العداوة والبغضاء بين بنى العلات أو بين بنى ابناء الحرائر المختلفة فأصبحنا لا نرجو من ورائهـا خيرا فى وضعها ونستطيع أن نؤكد أن الاغلال الخلقى الذى أصاب غيرنا من الأمم الأوربية إنما أصابهم عن طريق انحلال الأسرة فقد خرجت المرأة للعمل وكان عملها ضرورة مؤقتة من ضرورات الحروب المتواليـة التى سببت نقصا فى الأموال والأنفس والثمرات ، فزاحمت المرأة الرجل وهو لا يدرى أنها زاحمت زوجها وولدها فى ميدان العمل فما أخذته من أجر هو ما انتقص من زوجها وولدها وما تلقته باليمين بدرته بالشمال حينما اضطرت الى ترك وليـدها بين يدى المرضعة ، وزوجها بين يدى الطاهى والطاهية ، فسهلت له سبل الخروج من البيت ، وكان كسبها ككسب المقامر يخسر أمام المـائدة التى ربح منها ، باعت المرأة فى أوروبا جهودها واشترت به لبنا لوليـدها ، باعت عواطفها رخيصة باسمة للرئيس أو للعميل عابثة فى وجه زوجها ووليدها ، نقدت أخلاقها فاشترت الرضى والطمأنينة والعاطفة على أولادها من الخادمات والمربيات فى الحضانة ، لذلك تمزقت الأسرة فى أوروبا من هذه الناحية وتمزقت ثروتها لما رضيت أن تشترى كل شئ من السوق وكان المنزل معملا للانتـاج ، مطمعا للاستهلاك ، لا نريد لأسرتنا هـذا المصير و إنما نريد لها البقاء والاستقرار وأن تجرى على تقاليدها وأن تكون ربة الأسرة أما قبل كل شىء وهى تكتسب بأمومتها ثروتها ووليدها ، وتعمل فى بيتها ، وطنهـا الأصغر ، لقوميتها ، وطنها الأكبر الذى ينتظر منها كل خير ، و يعول على عملها فى كل خير يرجيه أو ترجيه ، ولن تكون الأسرة قادرة على أداء هذه الوظيفة إلا إذا كانت الأم متعلمة عاقلة لواجبها واعية للمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقها .

فاتصال الطفل بالجماعة الأولى التى هى الأسرة يلزمنا العناية بهذه الجماعة و بين جدران هذه الجماعة الأولى كل الإنتاج الحيوى للوطن .

أهملت الأسرة وأهملنا الأسرة وألقينا بالطفل إلى الجناح الثانيـة وهى المدرسة ، فأفلست هى أيضا فى مهمتها الخلقية والتمس لهـا بعض العذر فى هـذا الإفلاس : فإنمـا

يجدى عمل المدرسة فى الأرض الخصبة لا الجدبة ، و إنما تجدى مبادئ المدرسة فى الطفل المربى على قبول المبادئ والاستعداد لخير .

إنما تسيطر المدرسة على طفل تعرف أباه وأمه وتتصل بهما ، وقبل المعلم الأب ، وقبل المصلحة الأم ، وأقبل أخوان المدرسة إخوة اللحمة والدم . وجدت الجماعة الثانية وهى المدرسة أن الجماعة الأولى وهى المنزل قصرت أيما تقصير . فلم ينتقل الطفل — إذ انتقل من البيت إلى المدرسة — من وسط إلى وسط إنما دار فى بيئة واحدة كما يتردد ، حارس الليل حول منزل فلم يلبث أن يصاب بالدوار فينام . واجب الآباء والمعلمين أن يتلاقوا فى المدرسة يتباحثون فيما أفاد الطفل وفيما أزاد ، ليكمل أحدهما الآخر والتضامن الاجتماعى أساسه أن تشترك الجماعات المتمم بعضها بعضا وأن يتصل حتى تسلم ما عهدته إليها الطبيعة إلى الوطن و إلى الهيئة الاجتماعية كاملا غير منقوص .

و إذا انتقلنا من هذه الجماعات الصغيرة حينما يصير الطفل شابا وجدنا أنه لا بد له من جماعة أخرى ، وهنا تتعدد الجماعات بتعدد الوظائف فى الأمة . فهناك جماعات علمية وهناك جماعات للعمل تختلف باختلاف صناعاتهم ، وهناك جماعات رياضية وهذه نعتمد عليها كثيرا فى باب الأخلاق ، بل تحاول هذه الجماعات من أول نشأتها أن تكون إنسانية عامة وأن يتعارف باسمها المصرى والعربى والهندى والأوربى والصينى والأمريكى متى اجتمعوا جميعا فى ساحة واحدة هى ساحة الرياضة هذا إلى ما تمنيه الرياضة من الأخلاق الفردية الجميلة كالاعتماد على النفس وتحديد الغايات وتحديد الدعوات والمطامع وكل تحديد يصل بالفرد إلى أن يكون غير اجتماعى يعمل لنفسه وهو يعمل لغيره و يعمل لغيره وكأنه يعمل لنفسه .

ولكى تؤثر هـذه الجماعات من الناحية العقلية ، وجب أن تستغل بجد فيما لديها من المسائل العمليه والفنية ، ولهذا قيل قديما "العقل السليم فى الجسم السليم" و يجب ان يقال حديثا فى باب الأخلاق " الخلق القويم فى العقل الحكيم " . فإذا استخصف العقل ، وعرفت العلاقات بين الاشياء ، وعرفت العلل والمعلومات والمقدمات والنتائج ، ظفرت هذه النتائج سليمة من الشوائب والأعلاق التى تظهر كثيرا منافية للخلق ، وهى فى الحق منافية للخلق لانها منافية للمنطق ، ويسوءنا جدا أن نجد تكذيبا لهذه الفكرة بين طوائف المتعلمين الذين لا تحصنهم ثقافتهم تحصينا يبعدهم عن الخلق غير الكريم ، ونرجع فنكرر أن العلم لا ينتج جهلا ، وأن الخير لا ينبت شرا ، وان العقل السليم لا يقود صاحبه الى الهاوية وكل ما نريده هو الإخلاص فى العلم وللعمل ، هذا الإخلاص الذى يمنع صاحبه من أن يقرر غير ما يعتقد ، وأن يعتقد غير ما يقرر ، نريد إخلاصا صحيحا فى الاعمال الجماعية كالصلاة الصحيحة التى لا بد واصلة بصاحبها الى أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، والخطر كل الخطر على الأخلاق أن تعتقد كل جماعة أن لها حقوقا وتهمل تادية ما عليها من واجبات .

دكتور
ابراهيم سلامه